Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المخيلة الكافكاوية والفانتازيا حدَّ أفلام الرعب، ثمة بناء الحدث بتناوب الساردين وتنويع الزوايا والأصوات كما العهد منذ (رباعية الإسكندرية) إلى (ميرامار) إلى (البحث عن وليد مسعود)... ومن ذلك أيضاً استثمار الكاتب لخبرته المسرحية في الحوارات التي تنهض بأغلب الرواية، منحّية السارد والسرد. كذلك هو استثمار الكاتب لخبرته الشعرية في واحدة من لغات الرواية التي تتعدد بالتهجين بالمفردات والعبارات العامية وبالنصوص الغنائية والشعرية وبخصوصية كل شخصية. وأخيراً وليس آخراً تأتي لعبة تفكير الرواية بنفسها، واستحضارها للنقد وسخريتها من الفلتان النقدي على غرار الفلتان الأمني في حمأة الحرب اللبنانية، مذكّرة بسخرية صنع اللّه إبراهيم من النقد في مستهلّ روايته (ذات). أما الهوامش التي تقطع السرد لتسخر من الديمقراطية العربية ومن بعض القادة الفلسطينيين (الحاج اسماعيل وأبو الزعيم)، ومن شايلوك الشكسبيري ومن تفاصح الفصحى على العامية، أما هذه الهوامش، فتذكر بصنيع الياس فركوح في روايته (قامات الزبد)، وبخاصة أن الحرب اللبنانية في صلب متن هذه الرواية كما الأمر في (فردوس الجنون).

***

لقد شيد أحمد يوسف هذا الفردوس على الحق بالجنون، مما كفله البند الأول من لائحة حقوق الإنسان، كما نصّت الرواية: للشخص أن يجنّ مما يجري حوله بالطريقة التي تروقه.

بهذه السخرية المريرة والجارحة يغدو لكل شخصية روائية –أم لكل منا؟ – قصبته– فيركبها وينطلق معلناً جنونه الصغير. ولأن الجنون فنون فثمة أيضاً الجنون الكبير: الجنون البشري الشامل، الجنون الذي برمجوه كقدر. وثمة الجنون المضاد: بعض الأوهام خير من الموت غيظاً، أو أن تحكي ما يخطر لك وتحاول التفوق. وتعدد الرواية أيضاً الجنون المحترم: أن تقفز بين العوالم وتعلن عن روحك حتى لو لم تقل إلا الكلام الذي تفهمه وحدك، ولكن: أية كتابة يمكن أن ترقى إلى لا معقولية الجنون؟

في صميم السؤال تنشب الديكارتية المجنونة: "أنا آمر فأطاع، إذاً أنا حيّ "كذلك:" أنا أصوّب فأقتل، إذاً أنا موجود". وهو إذن القتل والاستبداد، هو الوحشي الذي يعصف بالفرد والعالم وبالكتابة فلا يبقى لسرحان الذي يوقع (بيان الأبطال) نيابة عن شخصيات الرواية، إلا أن يخاطب الشخصية المحورية فيها (بليغ) قائلاً: "يجب أن نؤلف حياتنا من جديد على أنها الحقيقة، ولو في حكاية جنون".